نحو علم اجتماع تنويري

بانوراما تطور المدرسة النقدية في علم الاجتماع

من المرحلة الكلاسيكية إلى المعاصرة

للدكتور

حسام الدين فياض

مدرس النظرية الاجتماعية المعاصرة

٢٠١٧

لا أحد يمتلك الحقيقة إلا الله

اسم الدراسة:{ بانوراما تطور المدرسة النقدية في علم الاجتماع من المرحلة الكلاسيكية إلى المعاصرة }

التأليف: د. حسام الدين فياض

الناشر: صفحة نحو علم اجتماع تنويري

الطبعة: الأولى

تاريخ : ٢٠١٧

https://www.facebook.com/profile.php?id=100013362274564

تطور المدرسة النقدية في علم الاجتماع

بقلم الدكتور: حسام الدين فياض

مدرس النظرية الاجتماعية المعاصرة

يؤكد لنا تاريخ الفكر الاجتماعي أن المدرسة النقدية في علم الاجتماع، ظهرت كرد فعل طبيعي ومنطقي تجاه الأزمات والمشكلات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، التي كانت ومازالت تعتري الواقع الاجتماعي بكل تجلياته.

فالدراسة التحليلية **لحركات النقد الاجتماعي** التي ظهرت ضمن إطار المدرسة النقدية، تكشف لنا عن وجود مستويين أساسيين لهذا النقد، ففي **المستوى الأول** نجد أن النقد الاجتماعي يعبر عن احتجاج اجتماعي شامل يستهدف التأكيد على ضرورة التغيير الأساسي والجوهري للأنماط الحضارية القائمة، إذ يبدأ هذا النقد بالتحليل السلبي لعيوب السياق الاجتماعي القائم ونقائضه، من خلال العمل على تجسيد حركة احتجاج تنظر إلى الواقع كشيء يمكن إعادة تشكيله وتغييره، أي امتلاكها لتصور مثالي لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع، بحيث يصبح هذا التصور بدوره الإطار المرجعي الأولي لتنفيذ ما هو قائم، فيؤكد هذا المستوى على ضرورة امتلاك الحركة النقدية لقوى اجتماعية تصبح هي الفاعل الثوري **(الراديكالي)*** الذي ينتقل

* **الراديكالية** لغوياً ترتد إلى كلمة **راديكال** الفرنسية التي تعني الجذرية، دعاتها من المنادين بالتغيير الجذري. واصطلاحاً تعني نهج الأحزاب والحركات السياسية الذي يهدف إلى إحداث إصلاح شامل وعميق في بنية المجتمع. والراديكالية نزعة تقدمية تنظر إلى مشاكل المجتمع ومعضلاته ومعوقاته نظرة شاملة تتناول مختلف ميادينه السياسية والدستورية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية، بقصد إحداث تغير جذري في بنيته، لنقله من واقع التخلف والجمود إلى واقع التقدم والتطور.

بالمجتمع مما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون، من خلال التأكيد على اكتمال حركة التحول الاجتماعي والحضاري[١].

أما **المستوى الثاني** للنقد الاجتماعي فيمكن اعتباره أقل راديكالية وشمولاً لأنه يتبنى النقد الثقافي والتنويري فقط، أي أنه يهدف إلى عملية التغيير الثقافي والتنويري لتشكيل توجهات ثقافية وقيمية جديدة تحكم التفاعل الكائن في الواقع الاجتماعي والحضاري، ويظهر هذا المستوى من النقد الاجتماعي حينما تتحدر الحركات السياسية الراديكالية وتقتصر بأهدافها على النقد الذاتي والثقافي للمجتمع، أو عندما لا يكون الفاعل الثوري للمجتمع مهيأ لتنفيذ مهام النقد ومتطلباته. هذا النقد قد يصبح هو المستوى المسموح به حينما يثبت الواقع ويؤكد صلابته أمام الانتقادات الموجه إليه، حيث يسعى هذا الواقع إلى استيعاب مضمون النقد بما يدعم بنائه وصلابته ويفقد النقد مبرره ومشروعيته. ويبرز هذا المستوى النقدي في المراحل التاريخية التي يكون فيها الواقع الاجتماعي قوياً، قادراً على استيعاب تناقضاته مؤكداً على وحدته وتكامله، أو حينما يقتصر النقد الاجتماعي على فضح وتفنيد ما هو قائم، وامتلاك القدرة على الانطلاق إلى ما ينبغي أن يكون عن طريق امتلاك نموذج مثالي ومستقبلي يتحرك نحوه المجتمع، أو حينما لا يمتلك التيار النقدي قوى التحول الاجتماعي أو الفاعل الثوري[٢].

وتكشف لنا دراسة وتأمل تاريخ الفكر الاجتماعي عن وجود حركات متتابعة من النقد الاجتماعي الشامل التي عبرت عن **فكرة المجتمع الجديد**، والتي بدأت نشاطها انطلاقاً من عصر التنوير الذي ارتبط ارتباطاً كبيراً بالفلسفة والنقد، ويشير هذا العصر إلى حقبة تاريخية أوروبية عرفت بصعود

---

١ – علي ليلة: **الفكر النقدي في علم الاجتماع – جماعاته وتياراته**، من مقدمة كتاب: **النظرية الاجتماعية ونقد المجتمع (الآراء الفلسفية والاجتماعية للمدرسة النقدية)**، تأليف: زولتان تارد، ترجمة: علي ليلة، المكتبة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٤، ص(١٠-١١).

٢ – المرجع السابق نفسه، ص(١١).

البرجوازية من الناحية الاقتصادية، والنزعة الليبرالية من الناحية السياسية، والنزعة العقلية من الناحية الفلسفية، والنزعة الكلاسيكية الجديدة من الناحية الفنية، والنزعة التقدمية من التاريخية، كما أنه تضمن فلسفات عديدة منها: فلسفة التاريخ وفلسفة القانون ونظريات العقد الاجتماعي والاشتراكيات الطوباوية، وغيرها من التيارات الفكرية التي طبعت تاريخ الفكر الحديث في أوروبا[٣].

ومن الجدير بالذكر أن **فلسفة عصر التنوير النقدية** كانت تتمحور حول فكرتين أساسيتين[٤]:

١- فكرة التقدم التي تقول أن حركة التاريخ تعني تحسيناً مستمراً لأوضاع الإنسان، ومنها الأوضاع الأخلاقية نفسها، وكشفاً متزايداً عن طاقاته لتحقيق تكاملها، لهذا فإن الكمال شيء يمكن تحقيقه **في مجتمع جديد كامل**، أو هو شيء يزداد تحققاً مع حركة التاريخ في المستقبل.

٢- فكرة الطبيعة الإنسانية كطبيعة صالحة جيدة من حيث التكوين، وأن ما تكشّف عنها من فساد يعود إلى طبيعة التربية والمؤسسات الفاسدة، وأنه من الممكن بالتالي إن صحت لها المؤسسات الجيدة الملائمة، أن تكشف عن كامل طاقاتها فتكون مادة صالحة لبناء هذا **المجتمع الجديد**.

ومن خلال المنطلقات الفلسفية لعصر التنوير يمكن لنا اعتبار أن **حركات النقد الاجتماعي** التي ظهرت ومازالت تظهر، كان نتيجةً لعجز التنظيم الاجتماعي عن التكيف، إما مع البيئة الخارجية المحيطة أو مع متطلبات التطور المستقبلي، حيث يبدأ النقد الاجتماعي بنقد الأفكار التي تؤكد على شرعية التنظيم الاجتماعي القائم، ثم الانتقال بعد ذلك إلى نقد التنظيم

---

٣ – الزواوي بغوره: **ما بعد الحداثة والتنوير – موقف الأنطولوجيا التاريخية(دراسة نقدية)**، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص(٧٣).

٤ – نديم بيطار: **التاريخ كدورات إيديولوجية – فكرة المجتمع الجديد في المذاهب السياسية والإيديولوجيات الحديثة**، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ٢٠٠٠، ص(١٤٠).

الاجتماعي ذاته لفضح تناقضاته، ثم تقديم تنظيم اجتماعي بديل يتلاءم مع شعارات الفكر النقدي، إضافة إلى التأكيد على إشباع حاجات ومتطلبات الإنسان في إطاره، وامتلاك القدرة على التكيف مع السياق البيئي المحيط(٥).

ونعتقد بأن هذه الحركات قد ساهمت إلى حد كبير في بلورة الأسس النظرية والمنهجية للمدرسة النقدية في علم الاجتماع بشكل عام، لأنها قدمت السبل الكفيلة والكافية لنقد الواقع الاجتماعي من خلال تقديم رؤى بديلة أكثر تلاءماً لتحقيق الوفاق والتوافق الاجتماعي، حتى أصبح لكل حركة خصوصية مميزة من حيث امتلاكها للأسس النظرية والمنهجية التي تبنتها في دراستها و نقدها للمجتمع.

فالحركة الأولى للفكر النقدي ظهرت مع نظريات **العقد الاجتماعي**[*]، عندما حاول منظريها تأمل التنظيم الاجتماعي القديم للكشف عن بعض عيوبه ونقائضه، سعياً منهم لبناء نظام اجتماعي جديد تتحدد فيه العلاقات بين مكونات هذا النظام بما يساعد على خلق الاستقرار الاجتماعي. بمعنى يمكن لنا القول أن نظريات العقد الاجتماعي ظهرت كرد فعل على نظرية القانون الطبيعي، حيث حاولت هذه النظريات إعطاء مفهوم الدولة أو السلطة السياسية تفسيراً مدنياً أو اجتماعياً بدلاً من التفسير الإلهي الذي

---

٥ – علي ليلة: **الفكر النقدي في علم الاجتماع – جماعاته وتياراته**، من مقدمة كتاب: **النظرية الاجتماعية ونقد المجتمع (الآراء الفلسفية والاجتماعية للمدرسة النقدية)**، مرجع سبق ذكره، ص(١٢).

* تعتبر **نظرية العقد الاجتماعي** من النظريات المهمة في مجال الفكر الاجتماعي لسببين: **الأول** كونها أحدثت قطيعة بين السياسة واللاهوت وما جسده من استبداد، أما **الثاني** إيمانها بحقوق الأفراد. فقد لعبت نظرية العقد الاجتماعي دوراً مهماً وحاسماً في التقليل من أهمية الكنيسة، وبالتالي من نظرتها القائمة على نظرية الحق الإلهي التي تعد تطوراً لمقولة القديس بولس: كل قوة تأتي من الله. ونظرية العقد الاجتماعي هي نظرية افتراضية لا تربطها أي علاقة بالواقع كما يقول دوركايم. وقد أرجعت هذه النظرية نشأة كل من المجتمع والسلطة إلى فعل التعاقد بين الناس.

طرحته نظرية القانون الطبيعي. بهذا يقوم جوهر نظرية العقد الاجتماعي على أن انتقال الجماعة الإنسانية من الحالة الطبيعية إلى حالة المجتمع السياسي المنظم كان نتيجة عقد اجتماعي اتفق عليه الناس، ومن الجدير بالذكر أن بأن مفكري العقد الاجتماعي قد اختلفوا في تحديد أطراف العقد و التزاماته ألا أن أنهم اتفقوا جمعيهم على جوهر هذا العقد وهو الانتقال من القانون الطبيعي إلى المجتمع المدني[٦].

أما عن الحركة الثانية للنقد الاجتماعي فقد ارتبطت بظهور المجتمع الصناعي، وتطور الأسس الأولية والجوهرية للنظام البرجوازي الذي ساعد على تخلقه وتجسيده فكر التنوير الأوروبي النقدي الذي ساد في القرن الثامن عشر، والذي أسهم إلى حد كبير في تحليل وتجاوز النظام الاجتماعي القديم (الإقطاعي) المؤمن بالمبادئ الدينية التقليدية للعصور الوسطى. كذلك أكد على بداية مرحلة جديدة تتسم بالحرية والديمقراطية وتحقيق الرفاه الإنساني. لذا يمكن القول أن انتشار فلسفة التنوير بكل اتجاهاتها الفكرية والنقدية هي تعبير عن رد فعل تجاه أزمة المجتمع الأوروبي في تلك الآونة، فظهور الفكر العقلاني وإمكانية تحليل النظم الاجتماعية التقليدية ونقدها، يؤكد لنا أن بداية الحركة النقدية في هذه الحركة كانت انطلاقاً من الواقع الاجتماعي ذاته[٧].

وبالمقابل نجد في هذه المرحلة أن المجتمع السياسي الذي تخلق عن الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، والمجتمع الصناعي الذي تخلق عن الثورة الصناعية، قد أعطيا للبرجوازية التي تحملت أعباء التحول الاجتماعي حتى جسدته على أرض الواقع الحق في الحصول على ثمار هذا التحول بكل

---

٦ – نظام محمود بركات: **مقدمة في الفكر السياسي**، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥، ص(١٥٠-١٥١).

٧ – أحمد مجدي حجازي: **علم اجتماع الأزمة(تحليل نقدي للنظرية الاجتماعية في مرحلتي الحداثة وما بعد الحداثة)**، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨، ص(٣٢).

مفرزاته ونتائجه، على الرغم من أن الانجازات التي حققتها البرجوازية ليست من صنعها وحدها بل تحملت أعباءها أيضاً فئة البروليتاريا الصناعية الجديدة، إلا أن البرجوازية استمرت في الحصول على معظم عائد العملية الاقتصادية في مقابل حرمان البروليتاريا من نصيبها الشرعي الذي يعبر عن ظلم شامل وعن سوء تنظيم اجتماعي أديا إلى وجود تفاوت طبقي داخل المجتمع البرجوازي يتجسد باستغلال الإنسان لأخيه الإنسان أبشع الاستغلال(٨).

في هذه الأوضاع ورداً على ممارسات المجتمع البرجوازي ظهرت على الساحة السوسيولوجية موجة نقد كبيرة للمجتمع البرجوازي من خلال كتابات **كارل ماركس (الماركسية)*** الذي سعى إلى دراسة وتحليل المجتمع البرجوازي، حيث أعطى أهمية كبيرة لما اعتبره يمثل اكتشافات علمية جديدة في الاقتصاد البرجوازي(٩)، لإظهار التناقضات التي تعتري بنيته الأساسية من خلال كشفه لآلية عمل هذا الاقتصاد الجائر الذي يؤدي إلى حتمية صدام المصالح بين طبقتي المجتمع البرجوازي (طبقة مالكي وسائل الإنتاج – طبقة البروليتاريا) اللتان تشكلان قطبي التناقض في هذا المجتمع

---

٨ – علي ليلة: **النظرية الاجتماعية المعاصرة – دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع**، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٣، ص(٨٥).

* ظهرت الماركسية كتيار فكري ونقدي، في نفس الوقت الذي كان فيه التيار الوضعي ينمو ويتطور على أيدي بعض السوسيولوجيين أمثال: أوغست كونت، هربرت سبنسر، إميل دوركايم، ماكس فيبر، بهدف السعي إلى تطوير نظريات عامة لتفسير أزمة الواقع **(أزمة المجتمع الرأسمالي)** والسبل الكفيلة للخروج من هذه الأزمة بهدف الحفاظ على استقرار ومكتسبات المجتمع الرأسمالي. ومن الملاحظ أن الاتجاه الماركسي انتشر بشكل واسع خاصة بين الأوساط العمالية، وبين مناصري الحركات الثورية **(الراديكالية)** حتى أن بعض الجامعات مثل جامعة السوربون وغيرها من الجامعات اهتمت به كتيار فكري نقدي يجب دراسته وتحليله.

9 - Raymond Boudon and Francois Bourricaud: ***Critical Dictionary of Sociology***, Selected and Translated by: Peter Hamilton, Chicago, The University of Chicago Press, 1989, p.(230).

لتعارض المصالح بينهما، حيث تسعى الطبقة المالكة لتحقيق أكبر قدر من الإنتاج والربح، وطبقة العمال تسعى إلى استعادة حقوقها المادية المسلوبة[١٠].

ويعتقد ماركس بناءً على التحليل السابق، أن تقسيم المجتمع إلى طبقات وفقاً للفوارق الاجتماعية والاقتصادية، يعتبر أهم بكثير من الاختلافات في **الدين والعرق، أو الجنس**. لأن التفسير استناداً لمبدأ الطبقة يلفت الانتباه إلى معالم المعركة الحقيقة، لوضع هذه المسألة ببساطة، بين "**من يملكون**" و "**لا يملكون**"، بين البرجوازيين أولئك الذين يسيطرون على العالم الطبيعي والاقتصادي، والموارد البشرية، وبين البروليتاريا التي تشكل الغالبية العظمة من أفراد المجتمع البرجوازي، والذين يعيشون في ظروف دون المستوى المطلوب[١١]. لذا سعى ماركس للعمل على تأسيس نظرية شاملة تعتمد على **المادية التاريخية**[**] والجدلية في تفسيرها ونقدها للمجتمع وتصور البدائل التي تحقق العدالة الاجتماعية للإنسان عبر البروليتاريا التي ستكون محور التغيير الشامل الذي ستقوده من خلال الثورة على الأوضاع القائمة بهدف بناء مجتمع الرفاه الإنساني "**المجتمع الشيوعي**" الذي تنتفي فيه كل الفوارق الطبقية وتزول[١٢]. بهذا نجد أن الفكر الماركسي نظر إلى المجتمع على أنه

---

١٠ – السويحلي الهادي داعوب: **نقد نظريات الصراع الغربية**، المركز العالمي لدراسات والأبحاث، بنغازي، ٢٠٠٦، ص(٦٨-٧٣).

11 - Lois Tyson: ***Critical Theory Today- A User -Friendly Guide***, New York, Routledge, Second Edition, 2006, p.(54).

** هي الفلسفة الماركسية في التاريخ، حيث تمثل الجانب التطبيقي للمادية الجدلية في مجال الدراسات الاجتماعية، وترد حركة التاريخ إلى تطور قوى وعلاقات الإنتاج في المجتمع، وتصفها بأنها الأساس التحتي الذي يقوم عليه البناء الفوقي والسياسي، والذي يتطابق معه الوعي الاجتماعي.

١٢ – لمزيد من القراءة والاطلاع انظر– سمير نعيم أحمد: **النظرية في علم الاجتماع**، الباب الثاني(**النظريات الكلاسيكية ونقدها**)– **كارل ماركس والمادية التاريخية**، دار هاني للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١٠، ٢٠٠٦.

نظام للقوى المتصارعة، الناتج عن نضال الفرد للحصول على احتياجاته الأساسية، لأن المجتمع أصبح كما أسلفنا نسق من الجماعات المتنافسة على الموارد الاقتصادية، التي تخضع لقيادة صفوة مسيطرة كالبرجوازية [١٣]. بهذا نجد أن نظرية ماركس نظرية نقدية في جوهرها لأنها نظرية نفي و إدانة للوضع القائم في كل صوره، أي أنها تجاوزت نفي الفلسفة إلى نفي الواقع[١٤].

إلا أن جدل النقد الاجتماعي لم يتوقف عند الحركة السابقة، لفشل التنظير الماركسي في تطبيق بعض مقولاته النظرية الأساسية على أرض الواقع التي كان قد استند إليها في تحليله وتفسيره للمجتمع الرأسمالي. خاصة فيما يتعلق بدور البروليتاريا الثوري في قيادة قوى التحول الاجتماعي في العالم الغربي، فقد أثبتت معطيات الواقع عكس ذلك حين أصبحت البروليتاريا أكثر اندماجاً ضمن المجتمع الرأسمالي، مما دعا **ماركيوز** إلى الإعلان أن الطبقة العاملة لم تعد عامل التغيير الاجتماعي، بل ويصر أيضاً على أن هذا العامل لم يعد له أي وجود في المجتمع الصناعي المتقدم[١٥]، الأمر الذي أدى إلى وجود خلل برؤية المشروع الماركسي للواقع والمستقبل خاصة فيما يتعلق بعملية التحول الثوري.

وهذا الأمر ينطبق أيضاً على الماركسية المحدثة التي سعت إلى توجيه بعض الانتقادات إلى الماركسية التقليدية وخاصة فيما يتعلق بالتغيرات التي طرأت على الطبقة العاملة والبناء الطبقي في المجتمع وما آلت إليه هذه التغيرات من نتائج، بهدف جعل مقولات النظرية الماركسية تتماشى مع

---

[١٣] – السيد علي شتا: **المدرسة الظاهرية والمدارس الاجتماعية المعاصرة**، المكتبة المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٤، ص(٢٨٣).

[١٤] – حسن حنفي: **في الفكر الغربي المعاصر**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٤، ١٩٩٠، ص(٤١٠).

[١٥] – هربرت ماركيوز: **الإنسان ذو البعد الواحد**، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، ط٣، ١٩٨٨، ص(٢٦).

التطورات التي حدثت ضمن إطار الواقع الاجتماعي من أجل فهمه وتفسيره بغية تحقيق نقد الإيديولوجيات والممارسات السائدة في النظريات الرأسمالية، ويعتبر كلاً من "**جورج لوكاش، وجورج كورش، وأنطوني غرامشي**" أفضل من قاموا بهذه المحاولة، إلا أنهم لم يستطيعوا الخروج عن إطار الماركسية بأصولها التقليدية إلا من ناحية الإطار الشكلي فقط بمعنى أنهم لم يستطيعوا الخوض في أي تحليل بنائي أصيل يهدف إلى نقد المجتمع بغية إيجاد بدائل ممكنة للأزمات والتناقضات التي كان يعاني منها المجتمع الرأسمالي، إلا أن هذا لم يمنع من بروز بعض المفاهيم والفرضيات التي طورتها (الماركسية المحدثة)، والتي ساعدت على تفعيل الحراك النقدي لعلم الاجتماع المعاصر.

في ضوء ما تقدم نجد أن هذا الخلل قد نتج عن عدم قدرة النظرية الماركسية بصيغتها التقليدية أو المحدثة على تجاوز المعضلتين التي اعترضت مشروعها التنظيري بشكل عام: **الأولى** تتمثل في عجزها لفترة طويلة عن تأسيس مجموعة من المقولات النظرية التي تعد امتداداً لمقولاتها الأساسية وتستطيع في ذلك الوقت تناول متغيرات الواقع بالبحث والدراسة، بحيث ظل التنظير في ظل الماركسية مجرد ترديد لمقولاتها دون محاولة للاقتراب منها، وهدد ذلك بأن تكتسب مقولات التغيير الثورية متضمنات إيديولوجية محافظة، أما **الثانية** فتتمثل في عجز قدرتها عن التنبؤ بحركتها المستقبلية ويرجع ذلك لنوعين من العوامل والأسباب: النوع **الأول** يتعلق ببناء التنظير الماركسي كنموذج نظري، ويتعلق **الثاني** بمجموعة المتغيرات الواقعية التي طرأت على الواقع فدفعته إلى السير في اتجاهات خالفت التنبؤات الماركسية إلى حد كبير [١٦].

---

[١٦] – علي ليلة: **النظرية الاجتماعية المعاصرة دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع (الأنساق الكلاسيكية)**، دار المعارف، ط٣، القاهرة، ١٩٩١، ص(٢٠٢).

الأمر الذي أدى إلى ظهور حركة ثالثة للنقد الاجتماعي ضد استمرار قهر المجتمع الصناعي للإنسان الذي تحول بدوره ليصبح قهر المجتمع التكنولوجي المتقدم الخالق لحضارة قاهرة لكل الممكنات الإنسانية، من خلال إخضاع الفرد لها[١٧]، والعمل على تشيئه وجعله إنسان ذو بعد واحد عبر ممارسة العقل الأداتي لأدواره في هذا المجال، الذي يعتبر من أهم مفرزات الحداثة بكل تجلياتها الصارخة. إضافة إلى ذلك فقد أصبح المجتمع التكنولوجي المعاصر يعاني بدرجة بالغة من الانهيار الثقافي، حيث أصبحت القيم الثقافية للمجتمع عاجزة عن اللحاق بالتغيرات التكنولوجية المتسارعة.

ومن خلال تتبع هذه الحركة نجد أنه مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين المنصرم برزت "**مدرسة فرانكفورت**" على ساحة الفكر النقدي عام ١٩٢٣ باسم معهد البحوث الاجتماعية[١٨]، لتسد حاجة أكاديمية ولتعبر عن توجه مسار جديد بدأ يفرض نفسه بشكل واضح، لأنها نفس الفترة التي ظهرت بها توجهات فكرية عديدة أبرزها: اتجاه التحليل النفسي على اختلاف مدارسه، حيث كانت هناك محاولة جادة لمزجه بعلم الاجتماع لإفساح المجال أمام ظهور علم النفس الاجتماعي، بالإضافة إلى اتجاهات فلسفية أخرى تولدت من الفلسفات الألمانية الكبرى، كالكانطيون الجدد والهيغليون الجدد، والماركسية الملتزمة أو الماركسية النقدية التي تبحث عن الوجه الإنساني فيها وبالتالي عن البعد الفلسفي أيضاً، والوضعية وما أدت إليه من جمود، والمدارس المنطقية المجردة التي جعلت من الفلسفة أحد أبعاد الرياضيات، بالإضافة إلى الواقع الاجتماعي الذي كان يعاني من أزمات

---

١٧ – علي ليلة: **الفكر النقدي في علم الاجتماع – جماعاته وتياراته**، من مقدمة كتاب: **النظرية الاجتماعية ونقد المجتمع (الآراء الفلسفية والاجتماعية للمدرسة النقدية)**، مرجع سبق ذكره، ص(١٨).

18 - H.Dahms: ***No Social, Science Without Critical Theory***, University of Tennessee, Knoxville, USA, JAI Press, 2008, p.(18).

اجتماعيــة واقتصــادية حــادة مــع صــعود النازيــة فــي ألمانيــة، والثــورة الاشــتراكية في روسيا[١٩].

علمــاً بــأن مصــطلح مدرســة فرانكفــورت لــم يســتخدم بشــكل رســمي إلا بعــد عــودة المعهــد إلــى ألمانيــا فــي عــام ١٩٥٠، خــلال هــذه المســيرة التنظيريــة النقديــة قــدمت مدرســة فرانكفــورت نظريتهــا النقديــة تناولــت فيهــا مختلــف نمــاذج الــوعي النظــري والعملــي وبــالأخص الإيديولوجيــة الكونيــة (الشــمولية)، بالإضــافة إلــى تركيزهــا الكبيــر علــى مفــاهيم ومصــطلحات (الهيمنــة، العقــل الأداتــي، ثقافــة الإنســان ذو البعــد الواحــد) التــي شــكلت المصــدر الرئيســي لنقــد ممارســات وهيمنــة النظــام الرأســمالي فــي ذلــك الوقــت، ومــن الملفــت للنظــر أنهــا جمعــت فــي مقولاتهــا النظريــة بــين الهيغليــة المثاليــة والماركســية المحدثــة ومــدارس علــم الاجتمــاع والــنفس بالشــكل الــذي جــرى توظيفــه فــي نقــد نمطيــة الــوعي والعقائــد الجامــدة، مــن خــلال نقــدها للماركســية الرســمية التــي تــم تحويلهــا إلــى نصــوص مقدســة – **الماركســـية الأرثوذكســـية***– فــي محاولــة لتجديــدها وتطويرهــا لكــي تــتلاءم مــع متطلبــات العصــر الحــديث ومتغيراتــه المســتجدة، بالإضــافة إلــى نقــد الفلســفة الوضــعية مــن خــلال آراءهــا وممارســتها المتجســدة فــي علــم الاجتمــاع الوضــعي بغيــة إعــادة الوجــه الإنســاني لعلــم الاجتمــاع الــذي فقــده فــي إطــار الفلســفة الوضــعية. لــذلك تعتبــر مدرســة فرانكفــورت إحــدى الروافــد النقديــة الهامــة التــي أســهمت إســهاماً كبيــراً فــي بلــورة الفكــر النقــدي فــي علــم الاجتمــاع

[١٩] – تيودور فون أدورنو: **محاضرات في علم الاجتماع**، ترجمة: جورج كتورة، مركز الإنماء القومي، بيروت، بدون تاريخ، ص(٧).

* تعني الاستناد إلى الافتراضات الماركسية التقليدية المألوفة، مثل (فكرة الحتمية التاريخية، ومقولة أولوية نمط الإنتاج في تشكيل التاريخ الإنساني)، ودراسات مفهومي الطبقة والصراع الطبقي. وعلى الرغم من أن الماركسية الأرثوذكسية طرحت كثيراً من الأفكار والمقولات منطقياً، إلا أنها قد أغفلت قيمة النقد الذاتي، ولم توفر له مكاناً مناسباً في إطارها الفكري، لذا فشلت في صوغ نظرية موائمة للوعي الإنساني، لأنها استبعدت الذات الإنسانية من حساباتها النظرية حسب مفكري مدرسة فرانكفورت النقدية.

المعاصر، وبالتحديد من خلال الأفكار النقدية المعاصرة التي قدمها مفكريها المعاصرين المتمثلين بـ: **هربرت ماركيوز** والمفكر النقدي الفذ **يورغن هابرماس** اللذان ساهما في إيجاد نقلة نوعية ذات دلالة مفصلية للفكر الاجتماعي النقدي في الفترة المعاصرة والحديثة[٢٠].

أما عن الحركة الرابعة لحركة النقد الاجتماعي والسوسيولوجي، فقد ظهرت مع عالم الاجتماع الأمريكي **رايت ميلز**، الذي يمثل الأب الروحي للاتجاه الراديكالي في علم الاجتماع المعاصر، فقد استوعب التراث الفلسفي **الأوروبي- الأمريكي** خصوصاً الفلسفة البراجماتية (النفعية) التي كانت تعتبر أحد أهم التيارات الفلسفية الهامة في الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت[٢١]، ومن الجدير بالذكر أن ميلز قد كتب القسم الأكبر من مؤلفاته خلال الحرب الباردة[٢٢].

نُظر إلى ميلز باعتباره واحداً من أهم مؤسسي النزعة الراديكالية في علم الاجتماع الحديث، ليس بسبب أفكاره الناقدة للتراث السوسيولوجي المحافظ والتقليدي فقط، بل بسبب تبنيه لوجهة نظر راديكالية ملتزمة[٢٣]. ظهر رايت في إطار شامل من الحركات اليسار الجديد التي ظهرت في أقطار عديدة خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، حيث انتشرت موجة من النقد الاجتماعي، خاصة حركات الشباب

---

٢٠ – لمزيد من القراءة الاطلاع انظر – حسن مصدق: **يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت(النظرية النقدية التواصلية)**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥، ص(٣٥-٥٣).

٢١ – محمد سيد بيومي: **تأثير تغير النسق المرجعي في عصر العولمة على بنية النظرية السوسيولوجية (دراسة تحليلية نقدية)**، جامعة عين شمس، كلية الآداب، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص(١٥١).

٢٢ – جون سكوت: **خمسون عالماً اجتماعياً أساسياً(المنظرون المعاصرون)**، ترجمة: محمود محمد حلمي، مراجعة: جبور سمعان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص(٢٥٦).

٢٣ – أحمد مجدي حجازي: مرجع سبق ذكره، ص(١٤١).

والطلبة[٢٤]. لذا يمكن اعتباره رمزاً لمعارضة راديكالية لكل الممارسات السوسيولوجية التي ظهرت خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين المنصرم الذي أكد على الكيفية التي ينبغي فيها أن تجرى البحوث الاجتماعية[٢٥]، وبهذا أصبح ميلز جزءاً من تاريخ الفكر الاجتماعي الغربي، لأنه شكل نقطة انقطاع هامة في مسار الفكر الاجتماعي الذي ظل أسيراً لنزعة محافظة اعتذارية تسعى للدفاع عن الأوضاع القائمة ومعارضة أية تغيرات بنائية شاملة[٢٦].

أما عن الحركة الخامسة لحركة النقد الاجتماعي فقد بدأت في مطلع عقد الستينيات من القرن العشرين المنصرم حيث تبناها اليسار الجديد المكون من الشباب وطلاب الجامعات الذين اعتمدوا بشكل كبير على الأفكار النقدية التي قدمها عالم الاجتماع الراديكالي **س. رايت ميلز**، حيث أبدى اليسار الجديد عبر هذه الحركة تحدياً صريحاً وعلنياً للمجتمع الصناعي بكل مؤسساته (الصناعية، العسكرية، الاقتصادية) ذات الجبروت الشامل، مستنداً في تعبيره الإيديولوجي والنظري وتبريره الأخلاقي على الإيديولوجيا الراديكالية التي شكلت إحدى المنطلقات الأساسية في تشكيل الوعي الاجتماعي للبشر في المجتمعات الغربية في ذلك الوقت[٢٧].

---

٢٤ – علي ليلة: **النظرية الاجتماعية المعاصرة: دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع**، مرجع سبق ذكره، ص(٦٤٢-٦٤٣).

25 - Wes W. Sharrock, John A. Hughes and Peter J. Martin: ***Understanding Modern Sociology***, London, Sage Publication, 2003, p.(151).

٢٦ – السيد الحسيني: **نحو نظرية اجتماعية نقدية**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥، ص(١٨١).

٢٧ – لمزيد من القراءة والاطلاع انظر – إدوارد باتالوف: **فلسفة التمرد– نقد الإيديولوجيا اليسارية الراديكالية**، ترجمة: سامي الرزاز، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ط١، ١٩٨١.

ويكشف لنا تأمل المقولات النظرية والإيديولوجية **لليسار الجديد*** عن وجود أفكار متناقضة تتداخل مع بعضها البعض بهدف تأسيس بناء نظري فيه من الوجودية والمثالية والنزعة الإنسانية للماركسية، بالإضافة إلى تبني بعض تقنيات البحث في علم الاجتماع الأمريكي، الذي يهدف إلى إيجاد فكر غايته الاحتجاج على ممارسات النظام الاجتماعي القائم، وليس الثورة عليه بهدف الإطاحة بهذا النظام[٢٨].

لذا نجد أن هذا النقد يعبر عن إيديولوجيا الشريحة البرجوازية المثقفة ضد المجتمع البرجوازي الحديث، أي أن النقد الذي تم توجيهه في هذه المرحلة ليس نقداً يسعى إلى تغيير أسس النمط الحضاري (التكنولوجي) للمجتمع، بل هو نوع من النقد الثقافي التنويري الهادئ الذي يشكل احتجاجاً لحظياً يعبر عن رد فعل أو استجابة لبعض الممارسات المنحرفة للنظام بحيث لا يسعى إلى التغيير الشامل الجذري. أما عن الكيفية التي يتحقق بها هذا النقد على أرض الواقع الاجتماعي فإنها تتم عن طريق الجماعات الخارجة على النظام التي تتمثل بوجود قوى اجتماعية تتولى نقده وتحريك ضميره وأن

---

* حركة سياسية واجتماعية متطرفة راديكالية ظهرت في الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين في الولايات المتحدة وخارجها. وقد ضم اليسار الجديد العديد من طلبة الكليات وغيرهم من الشباب وسميت الحركة بهذا الاسم للتفرقة بينها وبين اليسار القديم الذي ظهر في الثلاثينيات من القرن العشرين. وكانت تقود اليسار القديم بصورة عامة الأفكار الماركسية. طالب أعضاء اليسار الجديد بإجراء تغييرات جارفة وجذرية في المجتمع الأمريكي، وهاجم أعضاء اليسار الجديد معظم المؤسسات الرئيسية نتيجة إعلانها تأييد المبادئ الديمقراطية مع فشلها في إنهاء مظالم مثل الفقر، والتفرقة العنصرية، والفوارق بين الطبقات. وعارض الكثير من اليساريين الجدد الرأسمالية واعتقدوا أن الرغبة في تحقيق الأرباح تؤدي إلى الإمبريالية، وهي سياسة تفضّل مد النفوذ ليتعدى إلى دولة أخرى.

٢٨ – علي ليلة: **الفكر النقدي في علم الاجتماع – جماعاته وتياراته**، من مقدمة كتاب: **النظرية الاجتماعية ونقد المجتمع (الآراء الفلسفية والاجتماعية للمدرسة النقدية)**، مرجع سبق ذكره، ص(٢١).

كانت عاجزة عن تحويله تحويلاً راديكالياً، وتتكون هذه القوى من جماعات (الهيبز والطلبة والشباب عامة)، والملونين باعتبارهم قوى النضال المحدود في هذه المرحلة ضد الرأسمالية المتقدمة.

وهكذا نجد أن الاتجاهات النقدية السابقة بكل تنوعها وثراء أفكارها ساهمت بشكل كبير في تكوين الإطار الفكري للمدرسة النقدية في علم الاجتماع المعاصر، فهذه المدرسة لم تظهر في مجتمع آخر يختلف عن المجتمع الذي ظهرت به المدارس الاجتماعية الكلاسيكية (السابقة) بل في نفس المجتمع، وذلك كرد فعل طبيعي للتغير والتناقض الحاصل داخل النظم الاجتماعية الرأسمالية التكنولوجية، معبرة عن موقفها الرافض لهذا الواقع الذي كرس وعياً زائفاً به، لذا نجد أن المدرسة النقدية قد أكدت على اهتمامها الموضوعي بالنقد كوسيلة أساسية للتحليل الاجتماعي بما يضمن تجاوز هذا الواقع السلبي الذي تعيشه تلك المجتمعات، فكان من الطبيعي أن يتجه هذا النقد أيضاً إلى نقد المؤسسة العلمية باعتبارها تكريساً لتلك الأوضاع وتبريراً لها، هذا ما دفع جيلاً من السوسيولوجيين إلى إعادة النظر في المفاهيم والنظريات والمناهج التي قدمها العلماء المرتبطون بالنظام القائم بهدف السعي إلى بدائل نظرية أكثر كفاءة في تفسير الواقع، لأن أزمة المجتمع انعكست بدورها على العلم فأردته هو الآخر في أزمة، وهذا ما عبر عنه عالم الاجتماع الراديكالي **ألفن جولدنر** من خلال مؤلفه الشهير "**الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي**" الصادر عام ١٩٧٠. ونعتقد أن هذه الموجة النقدية تشكل الحركة السادسة من حركات النقد الاجتماعي و السوسيولوجي ضمن تاريخ المدرسة النقدية في علم الاجتماع المعاصر.

في إطار هذه البحث سنقوم بدراسة الأسس النظرية والمنهجية للمدرسة النقدية المعاصرة في علم الاجتماع من خلال تتبع ودراسة الإنتاج الفكري لروادها المعاصرين الذين اعتمدوا بشكل أساسي على أفكار الرواد الأوائل في نقدهم للواقع الاجتماعي، وبالوقت نفسه قاموا بتطوير المقولات الأساسية

"النظرية والمنهجية" لهذه المدرسة بشكل يتلاءم مع التطورات والتغيرات التي حدث على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لتلك المجتمعات. وعلى الرغم من إجماع مفكري المدرسة النقدية على نقد الواقع الاجتماعي بكل تجلياته إلا أن لكل مفكر منهم أسلوبه الخاص في نقده لهذا الواقع من منطلق القاعدة النظرية (**الابستمولوجية***) التي تقول: حضور كل الأجزاء في الكل على الرغم من اختلافها في أسلوب ومناقشة الفكرة الرئيسية، ففي المدرسة الفكرية يمارس التعدد داخل الوحدة و لمجرد الحديث عن المدرسة يكون الصعيد المجهري " ***micro*** " هو المقصود، أي جزء خاص محدد من المعرفة العلمية الحديثة وهو ما نشير إليه بالمدرسة النقدية(٢٩).

أي أن كل مفكري المدرسة النقدية اهتموا بنقد الوضع القائم في المجتمع من خلال نقد النظريات الاجتماعية التقليدية والمعاصرة التي تقوم على تثبيت هذا الوضع وذلك كلاً بطريقته وأسلوبه المميز، من خلال الإجماع والعمل على تأسيس نظرية نقدية للمجتمع ذات أسس نظرية ومنهجية تتمتع بالقدرة الكافية من المرونة والكفاءة لكي تقوم بدورها البناء في نقد المجتمع للارتقاء به نحو الأفضل لتحقيق إنسانية الإنسان المهدورة بإطار المجتمعات الرأسمالية التكنولوجيا، هذا التنوع الغني والإثراء الكبير لأفكار مفكريها جعلها

* فرع من فروع الفلسفة الذي يهتم بالمعرفة، والكلمة مشتقة من اللفظين الإغريقيين: ***Epistem*** **معرفة**، و***Logos*** **علم**، وتعنى بالدراسة النقدية لمبادئ العلوم المختلفة، وفروضها، ونتائجها، وتحديد أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية، من حيث شروط إمكانها في مجال الحياة الاجتماعية، وبالقواعد التي تتعلق بإنشاء معطياتها والتي ترتبط بالموضوعية، وبالمسافة بين الباحث والوقائع المعاينة، والتي تتعلق بنقد المخارج والإيديولوجيات ومقاييس البراهين. ويعد ماكس هوركهايمر أحد مؤسسي مدرسة فرانكفورت من أهم من تناول فلسفة التنوير عند كانط برؤية ابستمولوجية، ورأى في هذه الفلسفة اتجاها لم يكتسب امتداده الاجتماعي.

٢٩ – عبد الله إبراهيم: **الاتجاهات والمدارس في علم الاجتماع (دراسة في فلسفة العلم الابستمولوجيا)**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥، ص(١٧).

مـن المـدارس الاجتماعيـة المميـزة علـى الصـعيد الأكـاديمي لعلـم الاجتمـاع بشكل عام والمعاصر بشكل خاص.

ومـن هنـا اكتسـبت هـذه المدرسـة شـهرة واسـعة بـين المـدارس السوسـيولوجية المعاصـرة، بالإضـافة إلـى الأهـم مـن ذلـك الإنتـاج الفكـري المميـز لروادهـا ومفكريهـا الـذي سـعى ومـازال يسـعى لتحقيـق سـعادة الإنسـان مـن خـلال طـرح البدائل الممكنة التي يوفرها المنهج النقدي في سبره للواقع الاجتماعي.

===================

الله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

د.حسام الدين فياض

٢٠١٧